طريق الإخضاع للعلاج، لأنه ((ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء))[١]، كما يقول الحديث الشريف ولكن ينبغي البحث عن الوسائل والأسباب، وعد التواكل واليأس والإهمال..

ومن ورث عادات سيئة ضارة، يستطيع أن يستبدل العادات حسنة نافعة، بالمرأة والمحاولة والتدرب والتدرب والاستمرار.. وبالعزيمة الصادقة والإرادة القوية..

ومن ورث الضخامة والسمنة، يستطيع تخفيفها بالحمية (الريجيم)، والتغذية المحسوبة المقننة، وبالرياضة والحركة والعمل الكثير المنتج..

ومن ورث النحافة والرقة، يستطيع كذلك اكتساب القوام المعتدل، والعود الحسن، بالغذاء الكافي المتوازن، والرياضة الخاصة المناسبة.. ومن ورث الحمق، أو الجهل، أو الجبن، أو الدناءة.. فعليه بتكلف أضدادها، وهي: الحلم والعلم والشجاعة والرفعة، فقد قيل إنما الحكم بالتحلم، والعلم بالتعلم، والشجاعة بالتشجع، والرفعة بالترفع...حتى تصبح هذه الصفات عادات راسخة، وصفات ثابتة في الشخصية الساعية نحو الكمال.

وعلى ذلك نستطيع أن نقيس الأمور بأمثالها وأشباهها، ونمضي على هذه الوتيرة.. وقد نص الله تعالى في كتابه العزير: ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))[٢].

V.VI.VII أما علاج البطالة والجهل والأمية، والتدين الخاطئ، فقد سبق تناوله في بحث الطلاق..

الدعارة والعهر
La de'bauche et & le libertinage

وصف وفرز: في المعجم نجد: دَعَرَ ودَعرَ يَدْعَرُ دعارة: فَجَرَ، وتَدَعَّرَ: خَبُثَ، والدعارة: الخبث والفسق والفساد. وعَهَرَ، وعَهرَ يعْهَرُ عَهْراً وعهْراً وعهوراً وعهارة وعُهورة – المرأة: أتاها للغجور، العاهر: للمذكر والمؤنث: الزاني والزانية.

فالمعنى المشترك لهذه الألفاظ جميعاً هو الفجور والزنى والمنكر المتعلق بالجسد، واستحصال اللذة والمتعة بطرق غير مشروعة، تؤدي إلى فساد العلائق الاجتماعية، وفساد النسل والذرية، وانتشار الأمراض وانتقالها، وقتل معاني الكرامة والمروءة، والشرف والطهر.

فالمجتمعات والأديان جميعاً وعلى تطاول الأزمنة، واختلاف الأمكنة، انكرت واستقبحت الفجور والزنى واحترمت وقدّست العفة والطهر والصيانة، وعرفت مساوئ وعواقب الأول ومحاسن ومنافع الثاني.. وقيل الكثير الكثير في ذلك.

---

[١] تتمة "علمه من علمه، وجهله من جهله" البخاري ومسلم، انظر (قبس من نور محمد(ص) صـ٤٢٤
[٢] الرعد١١

قال تعالى: ((ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً)) و ((الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة))[١].

وقال (صلى الله عليه وسلم): ((لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حي يشربها وهو مؤمن))[٢].

وقال لما سئل عن أعظم الذنب: ((من أعظم الذنب أن تزاني حليلة جارك))[٣].

وقال الشاعر:

أمطعمة الأيتام من كدّ فرجها حرام فلا تزني ولا تتصدقي!

يروي أبو الفرج الأصفهاني، في كتابه: (الأغاني)، بعضاً من قصص الفسق والفجور، فمن ذلك أن جماعة من أهل حمص، استحسنوا غلاماً واستحلوه، فأخذوه معهم إلى بستان، فأكلوا وشربوا وأسكروه، فلما استحوذ عليه الشراب، فسقوا به جميعاً.

وقيل: الدعارة أقدم مهنة في التاريخ! ودور البغاء –مرخصة أو غير مرخصة– موجودة في كافة المجتمعات، وقلما خلا منها مجتمع من المجتمعات، خلال أزمنة التاريخ.

والقرآن الكريم يذكر ما يدل على أن بعض العرب –في الجاهلية– اتخذ من البغاء فيمن يملكه من الإماء، تجارة، كما في قوله تعالى: ((...ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم))[٤].

وفيه، أي: القرآن الكريم – كذلك– ما يدل على أن التسري أو الاستمتاع بالإماء أي: الجواري المملوكات، ملك اليمين، مباح، كما في قوله تعالى: ((...والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم، فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون..))[٥].

وقال تعالى، حاثاً على غض البصر، وحفظ الفرج: ((قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها...)[٦].

وكان الإسلام يحض على الإحصان –الزواج– وعدم اتخاذ الخليلات، ويدعو النساء أن يكن –في علاقاتهن بالرجال– ((محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان))[٧]، أي عشاق، وللدعارة والعهر، في مجتمعاتنا، صور ومظاهر كثيرة، سنعرض فيما يلي بعضها:

دور البغاء، أو ما يسمى: (المحلات العمومية): وفيها يجد طالب اللذة، أو المتعة المحرمة، عادة عدداً من النساء العواهر، اللواتي احترفن الدعارة، أو آلت بهن الظروف القاهرة إليها، أو ساقهن إليها قدر

---

[١] النور ٢
[٢] متفق عليه
[٣] مسلم
[٤] النور ٣٢
[٥] المؤمنون ٥-٧
[٦] النور ٣٠-٣١
[٧] النساء٢٥

أحمق غشوم، إلى غير ذلك مما يمكن أن يقال من العلل، وهن –عادة– من مختلف الأعمار، ولذلك تختلف الأسعار: وكبرياتهن يكن –عادة– قيمات وقوادات وخادمات.. للصغريات، أو لسائر البغيات، وتتقاضى الدولة، منهن، ضرائب مقابل إسكانهن وحراستهن، وتقديم بعض الخدمات الصحية وغيرها لهن..

وترد إلى دور البغاء، أو تُجلب إليها الزانيات المنبوذات من بيئتهن، أو الهاربات الخائفات، أو العاهرات اللاتئ يقبض عليهن، عدة مرات، في العهر والفساد –كما قيل– أو كما زعموا.

وفي سورية، أغلقت المباغي بالتدريح، في الخمسينيات، ولست أدري ماذا فُعل بالبغايا، وقد أحسنت الدولة –في نظري– حين اتخذت هذا القرار، لأن البغاء –وخاصة الرسمي– لا يقره دين، ولا يرضى به خلق كريم، ولا يتفق مع أية مبادئ ثورية أو اصلاحية..

فقبل الإلغاء، كان، في جانب من العاصمة دمشق، جناحان للبغاء رسميان، أحدهما للجنود والعامة، والآخر للضباط والخاصة، والفرق بينهما كبير واضح من حيث البناء والتجهيز بالمرافق، والفرش، والغانيات العاهرات أيضاً! وطبيعي، أيضاً، أن تكون الأسعار متفاوتة، وأن تكون الخدمات المقدمة إلى الزبائن مختلفة..

وفي حلب، كان هناك حي قديم خاص لهذه الغاية وبجانبه تقوم الحوانيت والدور والأسواق ومختلف الأنشطة التجارية، وفي بعض المحافظات السورية، كانت مجموعة من الدور، منعزلة عن وسط المدينة، أو جناح خاص منها، يجري فيه بيع الهوى، وعرض الأجساد الأنثوية للراغبين!

وفي لبنان، كانت تجارة الجنس أظهر وأقوى وأنشط ولها مظاهر وصور عدة، ويختلط أمرها بأنشطة الحياة المختلفة، كالفن والأدب والثقافة، والرياضة والسياحة..الخ "والمحل العمومي" في العاصمة بيروت، يمكن أن يعد أكبر أو من أكبر "المحلات العمومية" في العالم! وإن الكتب الجنسية والمجلات والصور والأفلام والوسائل الجنسية، التي كانت تعرض في بيروت خاصة، تضاهي مثيلاتها في عواصم الدول الغربية المشهورة، كباريس ونيويورك وغيرها.

وفي "بليدة" قرب الجزائر العاصمة، حي أو زقاق، فيه عدد من دور البغاء، يفتح ويغلق في أوقات محددة، وفي كل دار بضع نساء عاهرات، تشرف عليهن عجوز عمرها عمر الرذيلة –كما يقول نزار قباني في إحدى القصائد– تستقبل الزبائن، وتخدم البغايا..

وفي "مدريد" عاصمة إسبانيا، رأيت شارعاً فرعياً تقوم على جانبيه النوادي الليلية والنهارية، لتناول الشراب ورؤية برامج التعرية، وعرض مفاتن الجسد، والرقص المثير للغرائز.. والحانات والفنادق العامرة بالغانيات العاهرات، اللواتي يطفن، هنا وهناك على الأرصفة، بأبهى الحلل، وأبلغ الزينة، يصطدن الزبائن من السياح وغيرهم، ويدخلن بهم إلى تلك الفنادق، أو على دور خاصة وفي العاصمة الفرنسية "باريس"، تجد الحي المسمى "حي بيغال" حيث دور عرض الأفلام الجنسية، والملاهي المتصفة بالعري والمجون

والخلاعة، وحوانيت الجنس ((Sex Shops))، التي تباع فيها الوسائل الجنسية علناً، والأفلام والصور والمجلات والكتب والهياكل الجنسية المختلفة، مما يخطر ولا يخطر على البال!..

وحيث الغواني العواهر يجلسن على الأرصفة، في المساء خاصةً، شبه عاريات، متزينات متبرجات، مائلات مميلات! وكل واحدة بيدها مفتاح شقتها أو غرفتها، فإذا ما اصطاد أحد، تبعها إلى حيث تقيم، وقضى وطره منها، ويبدو أن دوريات الأمن.. لا تتعرض لهن –كما في إسبانيا– إلا إذا تجمهر الناس، أو حدث حادث، أو اشتكى شاك، وفيما عدا ذلك، يُغض عنهن الطرف! وشبه ذلك نشهده في العاصمة البرتغالية "لشبونة"، ولكن بنسبة أقل وأضيق.

أما في المغرب، فربما يختلف الأمر كثيراً، عما ذكرنا، فالجنس كالخبز اليومي، في كل مدينة وقرية، وناحية و(زنقة)، وإن كان التمركز له في مدن وقرى معينة، كالبيضاء وخنيفرة، ويوميّة، والريش، والحاجب واضحاً أكثر... لكنالبغاء الرسمي غير موجود.. ويبدو أن هذه الظاهرة قديمة في المغرب، منذ عهد الاستعمار الفرنسي وغيره، وأن استمرارها يدل على تغاضي الدولة، وتغاضي السكان أيضاً، لأسباب ومنافع اقتصادية واجتماعية..

ففي المدن، تخرج الفتيات والغانيات والعواهر، زرافات ووحداناً، يطفن ويتجولن، في الشوارع ولاساحات، وهناك تجري عمليات التصعيد والإغواء والإغراء، وفرص التعارف والتلاقي، والتصعيد يكون مباشرة، أو بواسطة السيارات.. وبعد التفاهم والمساومة، تأخذه إلى دار تعرفها، أو يأخذها إلى داره أو فندقه.. وقد يكونون جماعة من الجنسين، فيذهبون معاً إلى دار أحدهم، يقضون ليلتهم في اللهو والمجون و(التقصير) أ/ا في القرى وبعض المدن، مثل خنيفرة وبومية والريش.. فالشباب وغير الشباب، يأتون غليها من مواطن بعيدة غالباً، ليجدوا فيها البغايا الصغيرات الجميلات، اللواتي وردن إلى هذه الأماكن من السهول والجبال والوديان، والقيعان البعيدة الوعرة والمنقطعة، غالباً، طلباً لرؤية الحياة بمعناها الأوسع، وطلباً للمال والمتعة، والمعرفة والتجريب..

هناك الدور التي يدخلها العابرون، فيقضون أوطارهم ممن يرغبونها من الفتيات المختلفات الأعمار، والأشكال، وحتى الألوان.. والدور التي تجري فيها حفلات (التقصير)، حيث يجتمع فيها لفيف من الفتيات والشباب أو الرجال والنساء، على الطعام والشراب، والتفكه بالنقل والفاكهة، وسماع الموسيقا والغناء: إذ يقوم بالعزف رجل يعرف بالشيخ، على كمان أو غيره، بينما توقع البنات والشباب على المناضد أو الدفوف أو غيرها، ويغنون غناء خاصاً بتلك المناطق، بلهجة بربرية تسمى: (الشلحة)، وأثناء ذلك، يتناوبون على الرقص (الشطح) غالباً، ويضحكون ويمزحون، ويسمرون حتى ساعة متأخرة من الليل.. فإذا انقضت السهرة، أدى كل شاب مع فتاته التي سهرت معه، إلى غرفة في الدار نفسها، أو في دار أخرى، يقضي معها بقية الليل، وفي الصباح يتناولان فطوراً خفيفاً تقدمه الفتاة، ثم يؤدي إليها المتفق عليه، ويودعها، وينصرف وفي الليلة التالية تستقبل، وتنام مع غيره، وهكذا.

حتى الشيوخ المسنون، تتاح لهم فرص اللقاء جنسياً بصبايا في عمر الزهور -كما يقال- مقابل أجر زهيد معهود.. والحمامات -وما أكثرها هناك- كفيلة بغسل كل الأوساخ والأوضار، والذنوب والآثام -كما يزعم أكثر هؤلاء، حتى في رمضان فما يكاد ينقضي وقت الإفطار، أو وقت صلاة العشاء -على أحسن تقدير- حتى ينطلق كل جنس، يسعى وراء جنسه الآخر، ليقضي منه وطره، ويتناول ما يتاح له من الطيبات والأطايب، حتى إذا اقترب وقت الإمساك، دخل الحمام، فاغتسل، وخرج صائماً، وعلى الله متوكلاً!!..

وفي قرية تسمى (إيميلشيل)، حيث تغلب العادات والتقاليد القبلية المحلية، على كل ما سواها، يجتمع الفتيان والفتيات من تلك الناحية، في موسم أو مهرجان سنوي، وكل اثنين اجتمعا واتفقا -وهما يمرحان ويرقصان ويشاركان في مختلف أنشطة الموسم- يذهبان إلى شيخ القبيلة أو الفقيه، فيعقد لهما ويبارك زواجهما على الفور ويخرجان متزوجين! ولسوء الحظ فقد فاتني أن أشهد أحد هذه المواسم، وهي حقيقة واقعة وليست من الخيال!

وفي بعض المدن، يجد المرء أزقة في الأحياء القديمة، حافلة بالمومسات المحترفات وغير المحترفات، يقمن، في وضح النهار، على أبواب الدور، يغرين المارة من الرجال، ويدعونهم بالهمز واللمز، والتنهد والغنج..!

وقد رأيت، في بعض المدن -وهو قليل نادر- بعض الولدان المنحرفين الضالين، يخرجون مع الفتيات العاهرات، إلى الشارع، في السماء، يتصيدون مثلهن -من يفسق بهم من بقية قوم لوط! ويسمى هؤلاء، في المغرب: (الزوامل): مفردها (زامل)، وليس هذا مقصوراً على المغرب، بل قد يكون منتشراً في أكثر مدن العالم، فقد سمعت بمثله في أسبانيا وفرنسا، ووقفت على نموذج منه في دمشق، يُعتبر من أندر النوادر، وعلى رأسهم ذلك الفتى الملقب (زوزو)، ويعرفه الكثير، وهو مثقف رياضي، أنيق المظهر، عجيب المنطق، حلو اللسان.. يتصيد من يلوط به من السياح والغرباء.. وأظن أنه لا يتقاضى أجراً، لأنه -كما قيل- من أسرة غنية موسرة، وقد سمعته مرة، يتحدث إلى بعض الناس بالفرنسية طليقاً كالبلبل! مما يتعذر على مثله كثير من يدعي الثقافة والمعرفة.

ولعل من أعجب ما رأيت، وأغربه وأندره.. ذلك الرجل الدمشقي الذي كان يقود لزوجته وبناته! ويستقبل الراغبين من الغرباء -على الخصوص- ويسكر معهم، ثم يتركهم مع زوجته وبناته! ويستعمل داره -أحياناً- ماخوراً، إذ يستقبل فيها الفاجرين والفاجرات لقاء أجور معينة، ومنافع من مأكل ومشرب ومنكح..

ورجل آخر، رب أسرة مؤلفة من زوجة وأولاد ذكور وإناث، كان يؤوي -في داره- فتاة عاهرة -يقوّد عليها، مع ابنه الأكبر، ويتقاسمون وإياها العائدات! ويتبادلون المنافع!

وثالث، يشغّل امرأته في الدعارة، ويعيش من كد فرجها! وقد اشترى قطعة أرض وبني فيها داراً، وفرشها، من هذا الكسب الحرام والمجتنى الخبيث، ولا خجل ولا مروءة.

ولهذا وأمثالث، لا يعتبر مبالغاً، ولا سوداوياً متشائماً، من أدعى أن بعضاً من أخلاق الجاهلية الأولى ما زال مستمراً فينا، أو في بعضنا على الأقل، وأ، من بحث عن الشرور والأشرار، في هذا العصر، وجد فيضاً عارماً، وكمّاً كاثراً!

ربنا تب علينا، يا غافر الذنب وقابل التوب! قال تعالى: ((ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً))[١].

الأسباب

أكبر الظن أنه لا اختلاف في كثرة الأسباب المؤدية لهذه الظاهرة، من غريزية فطرية، إلى اجتماعية واقتصادية وتاريخية..الخ يختلط بعضها ببعض، ولعل من الخير، أن تنحصر هذه الأسباب في صنفين: أسباب داخلية أو ذاتية، وأخرى خارجية أو موضوعية.

٤-٥-٦- البطالة: وقد سبق الحديث عن هذا السبب، بما يكفي، عند بحث أسباب التسول وغيره، فليرجع اليد من أراد، في مكانه،

٤-٥-٦- الفقر والأزمات الطارئة: الواقع أن الفقر النسبي، الذي ينيخ بكلكله على السواد الأعظم من الشعب، ولا سيما في القرى والأرياف، والبوادي والجبال، والأزمات الطارئة التي تنزل بالسكان، من جراء الجفاف وقلة الأمطار، أو الأمراض والأوبئة التي تصيب الزروع أو المواشي، أو البرد الشديد، والرياح الصرصر العاتية، أو الحر والسموم.. من العوامل البارزة في خلق هذه الظاهرة وتنشيطها وتنميتها.. فالحاجة أو الفاقة مع عوامل أخرى، قد تدفع المرأة، أو الفتاة إلى السقوط في حمأة الرذيلة ولاتضحية بالطهر والعفاف، لقاء لقمة العيش، وسد الخلة، أو استجابة لسيل من الإغراءات والدوافع الأخرى.

٤-٥-٦- مخلفات ورواسب العهد الاستعماري: لقد سبق أن أشرنا إلى هذا العامل عند التصدي للحديث عن أسباب السكر والخدر، وقلنا إذ ذاك، إن المستعمرين قد أدركوا خطورة، وفقالية مثل هذه الأسلحة الفتاكة، فاستخدموها ضد الشعوب المستعمرة يفتح الميم فشجعوها -ولا سيما الشباب- على تعاطي الخمور والمخدرات، وممارسة ألوان من اللهو والمجون، والتسلية والتلهية، لفل هجمها وتثبيط عزائمها، وإضعاف إرادتها ونزوعها نحو التحرر والانطلاق، والتقدم والرقي، ولصرف عقلها، وكف بصرها عن وعي واقعها، والالتقاء والتكاتف والاتحاد، في جبهة واحدة، للجهاد والنضال ضد عدو مشترك..

ولقد كتبت الصحافة الكثير عن التركة المشؤومة، التي خلفها الاستعمار الأميركي في فييتنام ومن تلك التركة عدد رهيب من البغايا الفيتيناميات، اللواتي نزع عنهن شرفهن وطهرهن الجسدي، خلال تلك الحرب

---

١ فاطر ٤٥

الشيطانية الطويلة، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الشعوب والأمم المنكوبة، التي وقتع في براثن الاستعمار البغيض، فترة من الزمن، طالت أم قصرت..

وليس من السهل، على هذه الشعوب والأمم التي أخذت حريتها، وانتزعت استقلالها، أن تتخلص من عقابيل تلك التركة الملعونة في وقت وجيز، بل أرى أنه لا يمكن معالجة تلك الرواسب والمخلفات الاستعمارية، إلا بالتخطيط المحكم، والدراسة الشاملة والإرادة الواعية والمداومة على الدواء والعلاج.

إذاً، فقد رحل المستعمر، وترك وراءه، عدداً من المواخير، وبؤراً من الفساد، وطوائف من البغايا من الصعب تصور مداها وتقدير حجمها ونسبها..

إلا أنه يمكن أن نسجل أن بعضاً من هذه المواخير والبؤر قد اختفى، لحسن الحظ، وأن عدد العاهرات المومسات قد أخذ بالتضاؤل والتناقص، منذ فجر الاستقلال..

٤-٥-٦- الجهل والأمية، والتدين الخاطئ، وتغاضي الدولة أو تعاميها..

سبق الكلام على هذه الأسباب جميعاً، حين الحديث عن أسباب السكر والحذر..

٧ غلاء المعيشة، وارتفاع كلف الزواج: فغلاء المعيشة المستمر، وتصاعد المهور، ونفقات حفلات الزفاف، وكلف الحياة الزوجية، جعل فريقاً كبيراً من الشباب، يُعرض عن الزواج، في سن مبكرة -على الأقل- ويؤجله إلى أن يجمع ثروة كافية، ويستقر في عمل أو وظيفة مضمونة دائماً.. وأنى لأكثرهم هذا؟ والحال، على ما تعرف، في بلداننا النامية، من الاضطراب والحروب، والتزايد السكاني، والترجرج الاقتصادي، والاختلاف السياسي والإيديولوجي...الخ

مما أوقع كساداً في إنشاء الزواجية في العلاقات المشروعة ورواجاً في سوق العلاقات المحرمة، ومجالات الفاحشة، وسبيل الضلال والانحراف..

٨ التشرد: وقد سبق بحث هذه الظاهرة بتفصيل أوائل هذا الكتاب، فليرجع إليه من شاء، في مكانه.

الأسباب الذاتية:

١- الغريزة الجنسية:

فكل من الذكر والأنثى يولد، وفيه هذه الغريزة الجنسية، غريزة البقاء والاستمرار، عن طريق الاتصال الجنسي والتوالد.. والله سبحانه أشار في القرآن الكريم، إلى أنه تعالى خلق البشر جميعاً من نفس واحدة -آدم- وخلق منها زوجها -حواء- ليسكن إليها، وأعتقد أن هذا السكن، هو المودة والرحمة، والحب، المتولد عن الاتصال الجنسي والمعايشة.. وفي بعض الأحاديث القدسية- وهي الأحاديث التي أوحى الله بمعانيها، إلى الرسول دون ألفاظها -أما القرآن فموحى باللفظ والمعنى -يشار إلى أن الله تعالى خلق حواء من ضلع آدم، ولهذا، فكل جنس من الجنسين، يسعى للالتحام بالجنس الآخر، لإزالة توتره، وتحقيق سكنه، وبالسكن تتحقق السعادة.. وفي سفر التكوين -الإصحاح الأول- من التوراة جاء ما

ترجمته: "فدعا آدم بأسماء جميع البهائم[١]وطيور السماء وجميع حيوانات البرّية، وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره، فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم، فقال آدم، هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة، لأنها من امرئ أخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً، وكانا كلاهما عريانين: آدم وامرأته وهما لا يخجلان".

هذا –بلا شك– تعليل للغريزة الجنسية التي تدفع كل جنس إلى الآخر.. ليتصل به، لأجل أن ينسل ويتكاثر.. ولعل أكثرنا، قد سمع بذلك التعليل الذي شاع عن أفلاطون –تلميذ أرسطو– حين ادعى أن الله خلق الإنسان –أول الأمر– برأسين وجسدين ملتحمين جسداً واحداً، ثم فصله جسدين ذكراً وأنثى.. وفرقهما.. ومنذ ذلك الحين أخذ كل نصف، يسعى إلى نصفه الآخر...الخ

نفهم، من ذلك، عدة أمور، منها: أن الغريزة الجنسية دافع فطري، قوي عنيف، وهو محترم ومشروع وضروري لاستمرار الخلقن وعمارة الأرض وتحقيق مشيئة الخالق.. ولكن الأديان جميعاً، والأعراف الاجتماعية، لم تطلق العنان لهذه الغريزة، حتى لا يشبه الإنسان الحيوان، لأن الله تعالى كرّمه، وسخر الحيوان، وكل شيء له، حتى أنه قد أسجد الملائكة له، ممثلاً بأبي البشر جميعاً آدم عليه السلام: ((إذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس))[٢].

ولذلك شُرع الزواج، وعزز وقدّر ورفع فوق الإباحية، والعلاقات المحرمة، في كل زمان ومكان..

وإذا لم تجد الغريزة الجنسية، سبيلاً إلى التصرف والنفاذ والتحقق، عن طريق الزواج، انفجرت واندفعت، بصاحبها، كالسيل، إلى المسالك المحرمة، والتصرفات المنحرفة.. وقد تدفع بالإنسان –أحياناً– إلى الاعتزال والتوحد والرهبانية، أو إلى التسامي والأرتفاع والإبداع في عالم الأدب أو الفن أو العلم..

وليس من شك في أن كثيراً من حالات السقوط الجسدي، في أحضان الرذيلة سببه الكبت الجنسي، والانفجار القوي، في لحظات الضعف الإنساني، وانهزام الرادع الأخلاقي أمامه.. والجسد الذي سقط، أول مرة، يسهل عليه السقوط بعدها، ويصعب منعه وتحصينه، اللهم، إلا بالزواج، فمثله كمثل الآنية الفخارية أو الزجاجية، إذا انكسرت، يصعب رأب تصدعها، ولحم كسورها، ولا يعيدها سيرتها الأولى، إلا صهرها من جديد، وصبها في قالبها الأصلي، وأنى للجسد ذلك!

٢- الفضول الجنسي وحب الاستطلاع والتجريب: على أن الفضول الجنسي، وحب الاستطلاع والتجربة، عند أكثر الناس، إن لم نقل كلهم، من العوامل التي لا يستهان بها، في ولادة هذه الظاهرة واستمرارها.. فكل امرئ، ذكراً كان أم أنثى، يريد أن يعرف هذا الدافع الجنسي عنده، وعند الآخر، بمزيد من الممارسة والتجريب وكلما قطع شوطاً، زين له أن وراءه، أشواطاً أكثر إثارة وتشويقاً.. يريد أن يجرب أكثر فأكثر، أو يقوم بأكبر عدد من التجارب، لذلك قيل: إن كلاً من

---

١ انظر كتاب (دروس اللغة العبرية) صـ٤٣٩
٢ البقرة ٣٤

الزوجين يشعر بالغبن إزاء الدخر، ويظن أنه حرمه متعاً شتى! ويميل بعض الأزواج إلى الخيانة تعويضاً لما حرمه من قبل شريكه!

ومتى استحوذت على الإنسان شهوته، وضعف الوارادع الأخلاقية عنده، هان عليه كل شيء، في سبيل إشباعها.. وربما داس على القيم والمبادئ وجميع المثل العليا في سبيلها، وهيهات، هيهات أن يشبعها! فلو بقيت –في هذا العالم– امرأة واحدة، لم يصل إليها، لسعى أو طمع في الوصول إليها، وكذلك تفعل المرأة التي من هذا القبيل، ولا أشك مطلقاً، في أن لهذا الفضول الجنسي، وحب الاستطلاع والتجريب ضحايا من الجنسين، هم الآن، يتخبطون في مستنقع العهر والفحش والفساد.. وليس لهم من منقذ غير الزواج الذي شرعه الخالق (سبحانه) والرضا والقناعة به..

٣- جو العصر النفسي: فالجو العصر –بما يتسم به من سرعة، وتسابق حضاري، ومن انتقال وشيوع الأفكار والآراء، والمذاهب والنظريات، والعادات والبدع (الموضات) بواسطة الوسائل الحضارية المختلفة، من كتب ومجلات ورسائل، وأشرطة تسجيل، وأفلام وبرامج إذاعية وتلفزيونية.. تصل إلى كل مكان في هذا العالم.. ومن تقدم وسائل المواصلات، والواصل بين الأمم والشعوب، من سريان رياح الحرية والتحرر والانطلاق في كل مكان، ومن وفرة الوسائل الترفيهية والكمالية، ومن تقدم العلم والطب والاختراع و(التكنولوجيا).. أشاع جواً نفسياً معيناً بالنسبة للجنسين، وفرض، وروّج أنماطاً من الشعور والسلوك كالاتباع والتقليد والمحاكاة، لما ولمن تفرزه الحضارات المختلفة، ولا سيما الحضارة الغربية، والتسابق والتنافس المحموم في اقتناء كل جديد، واجتناء الملذات، وتحقيق الرغبات، واقتناص الشهوات.. بكل الوسائل، وبأسرع السبل، والغيرة والحسد، والبغي والعدوان...الخ

٤- فكثير من الفتيات والفتيان، دفعهم التقليد الأعمى، وحب المحاكاة، بلا فهم، ولا تعقل أو حملتهم شهوة الإثراء العاجل، أو الاستمتاع السريع.. إلى السقوط الجسدي في مستنقعات الرذيلة والفساد، والعهر والدعارة..

٥- ولقد بلغ الشعور بالغيرة والمنافسة في بعض النساء، في العالم، حد تقليد ومحاكاة الرجال في كل شيء، فقد قرأت، في إحدى المجلات، أن بعضاً من النساء والفتيات، في المدن الكبرى، والعواصم الغربية، يقمن بعمليات خطف، لمن يستحوذ على إعجابهن من الرجال، ويجبرن المخطوف على ممارسة الجنس معهن، وأن بعضهن يعمدن –كما يفعل الرجال– إلى استدراج الرجال، واصطيادهم بكل الوسائل الإغرائية.. وأن عدداً من النساء خرجن في مظاهرة صاخبة، في إحدى المدن الأوربية يطالبن بفتح مواخير من الرجال لهن، أسوة بالرجال! وأن طائفة من البغايا، تظاهرن، ذات يوم، مطالبات بتعويضات ومعاشات تقاعدية...الخ

وتبقى التجارة بالجنس وتوابعه، من المسكرات والمخدرات، ووسائل اللهو والعبث والمجون، والتسلية والتلهية، كالميسر والقمار وغيره.. من أخطر أسباب هذه الظاهرة.. ولم نفرد لهذا السبب باباً على حدة مع

خطورته وقوته.. نظراً لاختلاطه بالأسباب الأخرى، وملابسته لروح العصر، وجوّه، ومختلف مظاهره وأنشطته، وكونه إحدى الجراثيم التي تتعايش مع غيرها، في أجواء الحرية والديمقراطية، في المجتمعات الحديثة المتحضرة، أو السائرة نحو الحداثة والتحضر، بالمفهوم الغربي..

النتائج والعواقب:

إن من يستقصي ويتتبع نتائج هذه الظاهرة، سيقف على كثير من عقابيلها، وعواقبها الوخيمة، التي قد لا تخطر على بال، وسنحاول –فيما يلي– الإلمام بما يبدو لنا الأهم بين تلك العواقب والنتائج..

a) شيوع الأمراض الجنسية وانتقالها بالعدوى:

فالاتصال الجنسي بين مريض مرضاً معدياً وامرأة سليمة يؤدي –لا محالة– إلى إصابة تلك المرأة بذلك المرض، فإذا لم تتداوَ على الفور وتمتنع عن الاتصال الجنسي بآخرين، حتى تصل إلى الشفاء التام من المرض، فإنها ستصبح حتماً بؤرة، لتصدير هذا المرض ونشره في طائفة من الرجال والنساء الأصحاء، وهؤلاء سيكونون وسائط لنقله وتصديره إلى آخرين وأخريات، من أبناء المجتمع.. وهكذا دواليك!

مما يصعب معه حصر المرض ومنع انتشاره، واجتثاث منبعه، وفي ذلك ما فيه من إفساد الصحة العامة للمجتمع، وجناية على الأبرياء.. إذ قد تضاجع المرأة الموبوءة رجلها العفيف السليم النظيف، فتنقل إليه المرض، أو يجامع الرجل الداعر المريض امرأته العفيفة الشريفة الصحيحة من كل مرض، فيؤدي بها إلى المرض والاعتلال.. وقد ينتقل المرض إلى أفراد الأسرة الآخرين، بطريقة الملامسة والمعايشة، بمختلف صورها وأشكالها..

والأمراض التي تذكر، بهذا الصدد، كثيرة متفاوتة الخطورة والأعراض والنتائج، منها ما هو تناسلي، قد يؤدي بالمريض أو المريضة إلى العقم، أو البرود الجنسي أو العنة.. ومنها ما هو جلدي، يسبب الدمامل والأورام أو البثور والقشور، أو الحكة والهراش.. ومنها ما هو عام بالجسم كله، يصيب الجسم بالضعف والهزال، والشحوب والإصفرار..

من هذه الأمراض جميعاً، نذكر مثلاً: الزهري، والسفلس، والسيلان (التعقيبة)، والجدري، والبرص، والجذام، واليرقان، والسل، والتقمل...الخ

b) ولادة اللقطاء، والجناية على الأطفال الأبرياء:

مما لا شك فيه، ان ظاهرة الأطفال اللقطاء، في المجتمعات، ناجمة عن العهر والدعارة والفساد.. فبالرغم من توفر وسائل منع الحمل المختلفة، واتخاذ الحيطة والحذر، فق تحمل المرأة من الاتصالات الجنسية غير المشروعة، وعندها تجد المرأة نفسها مضطرة: إما إلى إجراء عملية إجهاض، لطرح الجنين، وفي ذلك ما فيه من الخوف والألم، والتحرج، والشعور بالذنب والأثم.. وإما إلى الصبر والكتمان والاختفاء.. حتى تضع حملها، وترمي به في إحدى الزوايا، أو حتى الدور، أو المستشفيات.. ومن ذلك ينشأ قطاع من الأطفال اللقطاء الأبرياء، يربون هنا وهناك في المدارس والجمعيات الخيرية، والمياتم

والملاجئ، ويكونون عرضة للإهمال والحرمان، والتشرد والعذاب، والاضطرابات والعقد النفسية وقد يتعرضون للإيذاء والازدراء، والهمز واللمز، من قبل أبناء المجتمع، مع أنه لا ذنب لهم، ولا جناية، بل الذنب والجناية كلها تقع على الاتصال الجنسي غير المشروع، وعلى من مارسه واستبدله بالزواج الحلال الطيب، المحمود العواقب ولقد أتيح لي أن أرى، في المغرب، عدداً من اللقطاء واللقيطات، بعضهم في الخيريات والمياتم، يربون، ويُعلمون ويدرّبون على بعض المهن، على نفقة الدولة، أو تبرعات بعض المحسنين، وبعضهم في المجتمع ما بين عامل وأجير ومتشرد وضائع، ومتسول ومنحرف..

ومن عجيب ما أذكره، في هذا المجال، طالب كان من طلابي، في أحد مراكز تكوين المعلمين بالمغرب، فكنت أجده دائماً، مجداً مجتهداً نشيطاً، وأراه سوياً كغيره من الطلاب خلافاً لما يتوقع المرء أحياناً.. والعجيب في الأمر، أنه كان يصرّح أمامي، وعلى مسمع من الطلاب –في غير مامرة– أنه لقيط، وأنه رُبي في الملجأ الخيري كذا، وهو لا يجد، في ذلك، غضاضة، ولا حرجاً، حتى لكأنه يفتخر! ولعله ينفس شيئاً مما يحمله من ذلك الشعور الأليم، فيجد الراحة في البوح والتصريح، ويحني العطف والحنان منالآخرين، أو يتشفى بذكر الواقع والعيب، ويتسلى بذكر الهم، والبوح بالسر..

وعلى ذكر السر، فإن الجاحظ . في إحدى رسائله، وسياحاته الفكرية . يذكر أن حمل السر وكتمانه، من أشق وأصعب الأشياء على المرء، فهو يظل ينوء به، ويترنح تحته، حتى يبوح به إلى غيره، فيرتاح، ويذكر الجاحظ أن امرأ حُمّل سراً، فتعب من حمله، وثقل عليه كتمانه، كما أنكر واستعظم أن يبوح به لأحد، ولأنه أمانة في عنقه.. فذهب إلى الصحراء، وحفر حفرة ثم أدلى رأسه فيها، وأذاع ذلك السر في الحفرة! فشعر الخفة والارتياح! وفي أحسن الظروف، وأطيب الحالات، أن ينشأ اللقيط، ويربى عند بعض الأهل والأقارب، أو في مؤسسات حكومية لهذه الغاية . كما في بريطانيا حيث تكثر الأمهات بلا أزواج، حسب ما ذكرته بعض الصحف . إذ سيجدون قسطاً لا بأس به من العناية والرعاية والاهتمام... يعوضهم . شيئاً ما . عن عطف الأب وحنان الأم، ودفء الأسرة..

C . حرمان عدد من النساء والرجال، من نعمة الأمومة والأبوة ومشاعر السكن والرحمة والاستقرار:

إن التوجه نحو العهر والدعارة والفساد، بدل الزواج، الذي يعني الاتصال الجنسي المشروع، المأمون العواقب، ويعني بناء العش الزوجي المطمئن وإنجاب البنين والبنات: زينة الحياة الدنيا، ويعني الراحة الاستقرار، والسكن النفسي، ومشاعر المودة والرحمة بين أفراد الأسرة و أقول هنا: التوجه الخطير يقود . بلا ريب . إلى حرمان طائفة من رجال المجتمع ونسائه، من نعمة الأبوة والأمومة، ذلك الشعور النبي الذي يحرص عليه كل حي، ومن الأمان والاطمئنان، والرحمة والمودة والحنان.. ومن تلك الزينة ومتعتها وسعادتها، ألا وهي نعمة الأولاد، قال تعالى:"المال والبنون زينة الحياة الدنيا"[1] قرن المال إلى البنين، في توفير المتعة، وتحصيل السعادة، فلا متعة ولا سعادة بواحد دون الآخر.

[1] ـ الكهف ٤٦.

وليس الهدف هو المتعة والسعادة فحسب، ولكن تحقيق الذات، والاستمرار، إذ كل حي وخاصة الإنسان يتوق إلى تحقيق ذاته واستمراريته، عن طريق هذين العنصرين.. حتى الأنبياء (عليهم السلام) كانوا يحرصون على هذه الزينة: المال والبنون، لتأكيد ذواتهم، واستمراريتهم، في هذه الحياة الدنيا.

ويبدو واضحاً، أن هذين العنصرين، ليسا على قدم التساوي، رغم أهميتهما، وضرورتهما للحياة، فإن العنصر الثاني (البنين) أرجح وأخطر، في حياة الإنسان إذ يتطلع دائماً على من يخلفه ويرثه، ويعينه ويسنده، حين يصل إلى الضعف والشيخوخة وأرذل العمر، ثم حين يؤول إلى التلاشي والزوال جسداً، يتطلع إلى من يحقق آماله العريضة، ومشاريعه البعيدة، بعد وفاته.. وبعبارة موجزة يولد الإنسان وفيه ميل إلى الخلود، ولا يستطيع أن يحقق هذا الميل إلا بالنسل، أي إنجاب الأولاد، ولما كان الإنسان محباً للجمال، فإنه يحرص على النسل فيه . كما فهمت من بعض أقوال أفلاطون، في شهر آراء أرسطو . ولما كان النسل في الجمال، يمكن أن يتحقق بالإبداع والخلق الفني، فقد مال بعض الناس إليهما، لينسلوا فيهما، ويحققوا لأنفسهم الخلود المنشود.

وأتعس الناس حظاً، وأكثرهم حرماناً وشقاء وبؤساً . في نظري . أولئك الذين لا ينسلوا أولاداً، ولا أفكاراً متميزة، ولا روائع ولا بدائع، أي لم يخلفوا ما يخلدهم ويجعل لهم لسان صدق، وجمال ذكر في الناس.. ولقد رأيت، من نتاج العهر والدعارة والفساد، عجائز وشيوخاً، دب في أجسادهم الوهن والضعف والفساد، واستحوذ عليهم، المرض والخرف والعجز، وحرموا من الأمومة والأبوة، ودفء الأولاد والاسرة.. ولم يلدوا ولم يبدعوا شيئاً.. ولم يخلفوا فناً ولا فكراً.. فهم . الآن . يشعرون بالخيبة والمرارة، وبالبؤس والعذاب والحرمان ويتألمون لوحدتهم وعزلتهم ووحشتهم، ويأسفون على ما فرطوا، وضيعوا في حياتهم..

وهم كذلك أجسام بلا أرواح، كأنهم أشباح، وأمثلة للتعاسة والشقاء والضياع.. وكم سمعت أنين بعض الساقطات، وشكواهن وتندمهن، لما وصل إليه حالهن من الحرمان: حرمان الأمومة والأسرة والبيت والزوج.. وتخوفهن الشديد، من أن يقضين حياتهن هكذا، في العهر والدعارة والفساد، ثم ينقلبن . مثل غيرهن . قوادات رخيصات منبوذات.. يصرفن أعمارهن في أحضان الرذيلة، ومستنقع الفاحشة والقباحة.. وساءت سبيلاً وبئست مستقراً ومصيراً!

لقد صرحت إحداهن لصديق لي مرة: إنها تتمنى أن تتزوج ولو كلباً! يسترها، ويضمها إلى صدره وبيته، ويمنحها الأمومة، ويدفع عنها ذلك المصير المشؤوم.

ويظهر جلياً للمتأمل، أن نتائج الزنا والعهر والفساد، أشد وطأة ووبالاً على المرأة والفتاة، منها على الرجل والفتى، لأن هذين الأخيرين، إذا ما انغمسنا في حياة العهر والدعارة والفساد، فإنهما يستطيعان الخروج منها والتوبة، ثم العودة إلى الحياة الطبيعية، بالزواج والاستقامة والتقوى.. والمجتمع . ولاسيما في مفاهيمنا وتقاليدنا . مستعد للصفح والمسامحة، والغفران، والقبول وكأن شيئاً لم يكن! أما المرأة والفتاة، فإن المجتمع قلما يفعل ذلك بشأنهما، لأن المرأة والفتاة حرم، له صفة القداسة، وقداسته نابعة من صفة الطهر والعفة، فإذا زالت هذه الصفة ذهب كل شيء، بنظر هذه المجتمعات، وبالتالي: يصعب، وقد يستحيل

رجوع المرأة أو الفتاة إلى الحياة الطبيعية، بعد قضيها في الحاية الماجنة الفاسدة، وانغماسها في أجواء الدعارة والزنا، ومن هنا تنشأ المأساة الحتمية للمرأة والفتاة، والمصير المشؤوم لهما..

وينبغي ألا تنخدع الفتاة في هذا العصر، ببعض المظاهر التقدمية، والقشور المدنية، فتظن أن الفتى يجيز لها ما يجيز لنفسه، كلا! وإن بدا كذلك، فهو ما يزال يحتفظ بقيم الآباء والأجداد، في قرارة نفسه، وفي عظمه ودمه وروحه، وكل الرجال والفتيان . وحتى الفاجرون العاهرون منهم . عندما يريدون الزواج، يُقبلون على المرأة الطاهرة العفيفة، وينفرون من الساقطة البغية، لأن الطهر والعفة هما الأصل . حتى بنظر الرجل الفاسق العاهر . وما سواها خروج عن الأصل، وشذوذ عن القاعدة.

D . تزيين الفاحشة والرذيلة ونشرها..

لاشك أن هذه الظاهرة الاجتماعية المقيتة في ازدياد واتساع وتفاقم، ذلك أن فريقاً كبيراً من الشباب والشابات . في هذا العصر خاصة . قد أعرضا عن الزواج ومسؤولياته وتكاليفه، واستبدلوا به، تلك العلاقات الجنسية المحرمة